(١٢)

الحوار "المستحيل"
بين حضارات "الشرق"
وامبراطورية "الشر الأبيض" (*)

(*) دراسة نشرت على ثلاث حلقات بجريدة "البيان" اليومية الإماراتية التى تصدر عن إمارة دبى – يناير ١٩٩٣م.

obeikandl.com

الحوار "المستحيل"
بين حضارات "الشرق"
وامبراطورية "الشر الأبيض"

[١]

◆ **المدنية الغربية وأسباب تفوقها :**

ليس من شك أن الحضارة الغربية تمثل اليوم الحضارة السائدة فى العالم. والحق أن سيادتها ليس نتيجة قوة ثقافتها أو عظمة تراثها الفكرى أو العلمى بقدر ما هو نتيجة لتفوقها التكنولوجى والعسكرى؛ فقد أعطتها التكنولوجيا المتفوقة القدرة على غزو الشرق غزوا إعلاميا مكثفا عن طريق كل وسائل الإعلام المقروءة والمسموعة والمرئية. مما جعل الثقافة الغربية تخترق كل الثقافات الأخرى على أنها الثقافة الأكثر تقدما، فأصبح النموذج الثقافى الغربى بكل ما يحمله من قيم هشة وعادات مرذولة وسياسات عقيمة أساسها العنصرية والمصلحة، أصبح هذا النموذج هو السائد بين مثقفى العالم فاغتربوا عن ثقافاتهم ونتاسوا عناصر تميزهم وتغافلوا عن دراسة واقعهم وقيمهم وأصبحوا تابعين لا مبدعين، سلبيين لا ايجابيين، منفعلين لا فاعلين!!.

أما قوتها العسكرية بقدراتها المتفوقة وتنوع أسلحة الدمار الشامل فيها، فقد مكنتها من فرض السيطرة، والتحكم فى مصير شعوب وحكومات العالم الشرقى، وقد تطورت صورة هذا التحكم العسكرى أخيرا حينما انتقل من صورة التلويح والتهديد إلى صورة العلن والتبجح منذ أعلنت أمريكا رأس العالم الغربى وذراعه القوية أن بامكانها التدخل العسكرى فى أى مكان فى العالم لفرض إرادتها تحت مظلة ما يسمى بهيئة الأمم المتحدة التى هو فى الواقع هيئة الولايات المتحدة وحليفاتها الغربيات!، وقد حدث هذا التدخل العسكرى لمصالح معروفة فى حرب الخليج الأخيرة، وها هو يحدث الآن فى الصومال ومنطقة القرن الأفريقى، وإن لم يحدث فى أماكن كثيرة أخرى مثل البوسنة والهرسك لتعارضه مع المصالح الأمريكية – الغربية بالطبع!!.

إن القوة العسكرية والتكنولوجية وتفوقها فى الغرب هى التى تفرض العدل بحسب ميزان المصالح الغربية وحدها ودون أى اعتبار لمصالح باقى البشر فى العالم. إن ما تتغنى به امريكا ودول الغرب عن العمل بمقتضى المصالح الإنسانية العالمية فى إطار ما يسمونه بالنظام العالمى الجديد إنما هو محض تمويه ومحض خرافة. وذلك لسبب بسيط هو أن القوة العسكرية والتقدم التكنولوجى لا يمكن بأى حال أن يكونا أداة لإبداع نظام عالمى جديد تحترم فيه إنسانية الإنسان.

إن إدراكنا لأسباب التفوق الغربى المتمثلة فى التفوق التكنولوجى والعسكرى وحدهما يعنى ضرورة أن ندرك حقيقة أخرى

هى أننا فى صراعنا مع الغرب لسنا فى صراع مع حضارة سائدة بمقومات حضارية حقيقية مثل التقدم الأخلاقى والدينى والاجتماعى والفكرى والسياسى والعلمى والأدبى.. الخ، بل بمقومات مادية تكنولوجية تسير بالبشرية إلى الفناء ولا تتجه بها إلى التعمير والبناء. وذلك يعنى ببساطة أننا أمام مدنية متحكمة ولسنا أمام حضارة متفوقة.

ولعل القارئ الآن يسأل: ما سبب هذا الحديث عن التمييز بين الحضارة والمدنية؟!، وما ضرورة هذا الكلام عن التمييز بين الحضارة بمقوماتها الإبداعية القادرة على البناء الإيجابى فى شتى الميادين، وبين المدنية بمقوماتها الاستهلاكية المادية التى تجرنا إلى الضياع والفناء؟!.

• **جارودى وكتابه "حوار الحضارات" :**

إن ما أثار هذا فى الذهن إنما هو قراءة كتاب "حوار الحضارات" للمفكر الفرنسى الكبير روجيه جارودى، الذى كان من قبل ماركسيا مسيحيا وأصبح الآن مسلما معروفا. لقد كتب جارودى هذا الكتاب التنويرى الهام قبل إسلامه بمدة طويلة وقد أثار فيه العديد من القضايا الهامة والمثيرة، وكان أبرز هذه القضايا هى قضية الحوار بين الحضارات التى يشير إليها عنوان كتابه، وهى قضية القضايا فى فكر جارودى الفلسفى منذ مدة طويلة. وسيجد القارئ أن حوارنا مع أفكاره حول هذه القضية سيكون من منظور ما طرحناه فى مقدمة حديثنا.

إن قضية علاقة الغرب بالحضارات الأخرى هى لب مسألة الحوار الحضارى الذى يدعو إليه جارودى، ومن ثم كان عليه دراسة الحضارات الأخرى وما يمكن أن تقدمه للحضارة الغربية أو ما يمكن أن يستفيده منها الغرب. وقد تمخض عن هذه الدراسةِ لدى مفكرنا عدة قناعات عبر عنها فى كتابه الذى بين أيدينا بوضوح تام. وكان أهم هذه القناعات:

• **الغرب عرض طارئ:**

أولاً : أن الغرب عرض طارئ فى تاريخ البشرية الطويل. وقد صور مفكرنا دور الغرب فى هذا التاريخ الطويل للبشرية بعبارة "الشر الأبيض" وقد أحسن صنعا بهذا التصوير، لأن معظم الآلام والأحزان والأهوال التى عانى منها البشر قد جاءت على يد الغربيين فى فترات سيادتهم على العالم سواء فى العصور القديمة أو فى العصر الحديث؛ فقديما حينما تعاظمت قوة الغرب اليونانى ثم الرومانى، وفرض سيطرته على العالم منذ غزوات الاسكندر الأكبر ثم اقتسام قواده لامبراطوريته من بعده، وما أعقب ذلك من ظهور الإمبراطورية الرومانية فى التاريخ شهد العالم الكثير من ألوان التزييف والخلط الفكرى، كما عانى الناس أشر ألوان العذاب والأهوال. وكلنا يذكر قصص أولئك الأباطرة الرومان الذين كانت متعتهم الكبرى تتمثل فى رؤية البشر وهم يتقاتلون ويقتلون ليس فى ميدان الحروب فقط، وإنما فى حلبات المصارعة إما بيد بعضهم

البعض أو فى صراعهم مع الحيوانات المفترسة، فكلنا يذكر على سبيل المثال مفاسد نيرون وطغيانه واحراقه لعاصمة بلاده روما، وقتله لكل من تسول له نفسه الخروج عليه أو مخالفته فى الرأى حتى أنه أمر بإعدام سينكا الفيلسوف والأديب الرواقى الشهير وهو أستاذه ومربيه بقطع شرايينه.

أما فى العصر الحديث، فكلنا يذكر ويعلم كيف تعاظمت قوة أوربا والغرب باستعمارها بلاد الشرق والاستيلاء على ثرواتها واستعباد أهلها وكلنا يعلم كيف قامت أمريكا على اكتاف أولئك العبيد المستجلبين من بلاد الشرق وخاصة من افريقيا السوداء، وكيف أقام مهاجرو أوربا هذه الامبراطورية الجديدة (أمريكا) عبر استيلائهم على أراضى المستوطنين الأصليين من الهنود الحمر وإبادتهم إبادة جماعية!!. ولا تزال ذكرى الحرب العالمية الأولى والثانية ماثلة للعيان نشاهد تاريخ مآسيها عبر شاشات التليفزيون، ونعلم كيف استعرت هذه الحروب المدمرة بين الغربيين من جراء الصراع والتنافس فيما بينهم وإحياء القوميات العرقية العنصرية ومحاولة كل منها السيطرة على الأخريات. لقد مات الملايين منهم فى هذه الحروب، وها هم الباقون يحيون على الذكريات الأليمة والميراث المأساوى الذى يحاولون تصديره الآن وبصور مختلفة إلى الآخرين، إلى ما يسمونه حسب تصنيفاتهم العنصرية البغيضة "العالم الثالث". حقا إنها "امبراطورية الشر الأبيض"!!.

• وهم المعجزة الغربية:

ثانياً: أما ثانى قناعات جارودى فيتمثل فى إدراكه أن تصوير الغرب على أنه "بدء مطلق" ــ أى على أنه قد صنع حضارته بنفسه وأنه صانع الحضارة الإنسانية فى كل العصور ـــ إنما هو "وهم".

وقد برهن مفكرنا على قناعته هذه بنجاح تام حينما أكد "أن ما اصطلح الباحثون على تسميته باسم "الغرب" إنما ولد فيما بين النهرين وفى مصر أى فى آسيا وافريقيا[1]". وكما أن الغرب القديم (أى اليونان) قد ولد فى أحضان حضارات الشرق القديم ونما من شربه لرحيق فكرها وعلومها المتقدمة، فإن الغرب الحديث قد ولد عبر نقل نهضة شاملة صنعها العرب والصينيون فى العصر الوسيط (وهو اصطلاح يعبر عن التقسيم الغربى للتاريخ بوصفه مركزا له) إذن فلم يبق عصر النهضة "معجزة"، كما لم تبق ثمة "معجزة يونانية[2]".

وقد أفاض جارودى فى البرهنة على رفض المعجزة الغربية فى العصر الحديث وأكد على "إن شرط "نمو" الغرب إنما كان بالضرورة وليد نهب ثروات القارات الثلاث ونقلها إلى أوربا وأمريكا الشمالية[3]". وأن "مولد الجشع فى الغرب وهو يستند إلى أساس الربح والسيطرة قد أتاح الإفادة على سلّم لم يسبق له مثيل فى الماضى من الاختراعات التى أخذتها أوربا من ناحية ثانية عن الصينيين وعن العرب: بحرية تفيد من أجهزة دفة السفينة ومن

البوصلة، وهى تيسر إمكان الملاحة البحرية إلى مسافات طويلة، وكذلك استخدام البارود والأسلحة النارية بوجه خاص[٤]". وعلى ذلك "فإن التفوق الأوربى لا يرجع إلى تفوق ثقافى، بل إلى النفع الذى منحته أوربا من قطاعين: البحرية والأسلحة[٥]"، وقد نقلتهما أوربا من العرب والصينيين.

ولقد تحلى جارودى بشجاعة عظيمة حينما كتب فى مؤلفه هذا ولأول مرة فى تاريخ الكتابات الغربية بوضوح شديد "إنما يدين الغرب بعصر النهضة للـ "غزو" العربى الذى عرف كيف يخلق الشروط اللازمة لتفتحه[٦]". ولاحظ وضع جارودى لكلمة الغزو بين أقواس؛ فهو لا ينظر إلى ما حدث من دخول العرب أوربا على أنه "غزو" بل على أنه كان فتحا عظيما أفادت منه أوربا بأكثر مما أفاد العرب، وهو يرد على من يسمونه غزوا بقوله: "إن ما يطلقون عليه اسم "غزو أسبانيا" لم يكن غزوا عسكريا؛ لقد كان عدد سكان أسبانيا فى ذلك الحين زهاء عشرة ملايين نسمة ولم يزد عدد الفرسان العرب فى الأرض الأسبانية البتة على سبعين ألفا وإنما لعب التفوق الحضارى دورا حاسما[٧].

• **التفوق الحضارى للعرب ونقل الغرب عنهم:**

ولقد أفاض جارودى فى بيان التفوق الحضارى العربى وعرض بشىء من التفصيل لاسهامات العرب والمسلمين الحضارية،

وقارن بينهم وبين الأوربيين فى ذلك الوقت، حيث أوضح أنه فى الوقت الذى لم تكن فيه أوربا قادرة فى مستهل القرن التاسع على معرفة القراءة. كان الخليفة المأمون يفتتح فى بغداد بمساعدة جيش من المؤلفين والمترجمين مكتبة ضخمة هى "دار الحكمة". وكان "الحاكم" وهو أحد الخلفاء الأمويين يمتلك فى قرطبة مكتبة تحتوى على أكثر من مائة ألف مجلد، بينما لم تضم مكتبة شارل الخامس ملك فرنسا الملقب بالحكيم – أى العالم – إلا ألف كتاب بعد أربعة قرون[٨]. كما أوضح أن العرب "قد سعوا وهم يبنون امبراطورية تجارية كبرى إلى التقنيات والعلوم التى قفزت قفزة كبرى إلى الإمام بتأثيرهم[٩]". كما كشف النقاب عن أن الجغرافيين والفلكيين العرب الذين كلفوا برسم الخرائط الضرورية لإدارة امبراطوريتهم قد أخذوا بعين الاعتبار كروية الأرض فى الوقت الذى كانت الكنيسة المسيحية تنكرها. كما أقر جارودى منجزات العرب البحرية وكشف زيف التاريخ الغربى فى هذا الصدد بقوله: "ولئن أذهلت ريادات ماركو بولو الغرب، فإن من الثابت أن مؤلفاً عربياً تحدث سنة ٨٣١م أى قبل ماركو بولو بأربعمائة وخمسة وعشرين سنة عن رحلة إلى الصين وصل خلالها إلى سدود كانتون بل بلغ بلا ريب كوريا واليابان. وقد وضع مسلم يسمى أحمد بن ماجد فى الوقت ذاته تقريبا كتابا عن الملاحة البحرية فى المحيط الهندى والبحر الأحمر والخليج العربى وبحر الصين. وسيفيد البرتغاليون منه باعتباره أساس

دراساتهم البحرية فى عهد هنرى الملاح الذى يمثل بالنسبة إلينا نحن الأوربيين قمة فن الملاحة[١٠]".

وقد تحدث جارودى أيضا عن منجزات العرب العلمية ومكتشفاتهم فى كل حقول المعرفة من الحساب والرياضيات إلى الكيمياء والطب، وكذلك العلوم الإنسانية التى أشاد فيها بريادة ابن خلدون فى اكتشاف المفهوم العلمى لعلمى الاجتماع والتاريخ وسبقه لمكيافيللى فى طرح مشكلات موقف الإنسان من السياسة والتاريخ. وأشار إلى سبق ابن خلدون فى اكتشاف نظريات فائض القيمة بالاستناد إلى العمل قبل الاقتصاديين الأوربيين الذين لم يستطيعوا ــ على حد تعبيره ــ الانعتاق من النظريات التجارية فى القرن الثامن عشر[١١].

• **المخترعات الصينية ونهضة الغرب:**

وقد أشاد جارودى كذلك بما قدمه الصينيون من علوم ومخترعات ساعدت كثيراً فى التقدم والتطور الإنسانيين، وأشار فى هذا الصدد إلى اختراعهم "المطبعة التى لعبت دورا حاسما فى انتشار عصر النهضة والاصلاح والرأسمالية[١٢]. كما أشار إلى استخدامهم للثروة المعدنية واستخراجها من الأرض "بينما لم تعرف الصناعة الأوربية استخراج الصلب إلا حوالى ١٣٨٠م[١٣]" كما أوضح مدى تقدمهم فى ميادين استخدام قوة البحار والرياح، وأشار بعظمة

الأسطول الصينى الذى كان أقوى أساطيل العالم بين أعوام ١١٠٠ و١٤٥٠ م. وكذلك أشار إلى استخدامهم القوة الحيوانية فى التنمية، وإلى اختراعهم لبارود المدافع فى القرن التاسع الميلادى، وإلى كشوف علماء الصين فى مجال التغذية وعلم الحشرات وحماية النباتات ودراسة النبض وتقنيات وخز الإبر التى تنم عن علم بالتشريح متعمق جداً[١٤].

وبالطبع فلم يكن غريبا فى إطار تلك الأمثلة التى هى مجرد جزء ضئيل من اسهامات العرب والصينيين فيما قبل عصر النهضة الأوربية، أن يرد جارودى عصر النهضة الغربى إلى ما نقلته أوربا من منجزات الشرقيين من عرب وصينيين وغيرهم. بل إن الغريب والمدهش حقا هو ذلك التجاهل الذى ظل مسيطرا على كتابات المؤرخين العلميين الغربيين لتلك الانجازات والاسهامات الشرقية فى تاريخ العلم والتكنولوجيا طوال القرون السابقة. إنه باستثناء العلامة جورج سارتون فى كتابه الشهير "تاريخ العلم"، فقد درج المؤرخ الغربى دائما على أن يصور للناس أن تاريخ العلم هو تاريخ غربى محض، وأن الغرب هو صانع ومبدع كل المكتشفات السابق الإشارة إليها. وأن الغربيين لم يتأثروا بأحد ولم يأخذوا شيئا من أحد، وأنهم صانعو التقدم فى كل عصور التاريخ الذى يبدأ منهم (أى من اليونان القديمة)، وينتهى إليهم (أى إلى سيادة أوربا وأمريكا)!!.

[٢]

ويواصل جارودى تقديم قناعاته فى كتابه "حوار الحضارات" حول الحضارة الغربية بتحليل ما آل إليه حالها بعد كل التقدم الذى ظنت أنها أحرزته فى القرون السابقة.

• **التطور الصناعى فى الغرب والتأهل للانتحار الحضارى :**

ثالثاً : إن ثالث هذه القناعات يتعلق بنمط التطور الذى تمارسه الحضارة الغربية فى مجال التقدم الصناعى، إن ذلك النمط فى نظر مفكرنا إنما يقود البشرية إلى طريق مسدود. ويعبر عن هذه القناعة بقوله: "إن حضارة تقوم على هذه الموضوعات الثلاث: تحيل الإنسان إلى العمل والاستهلاك – تحيل الفكر إلى ذكاء – تحيل اللانهائى إلى الكم، إنما هى حضارة مؤهلة للانتحار[١]".

ويفسر جارودى أسباب هذا التأهل للانتحار بقوله: "إنه انتحار لفقدان الهدف ويشهد على ذلك ضروب الفرار إلى المخدرات وانتحار المراهقين بأعداد أكبر فى الأصقاع الأغنى "وهو" انتحار لإفراط الوسائل ويبرهن على ذلك النضوب المتنامى للمصادر الطبيعية والتلوث وذلك نتيجة ضرورية لتصور لا يرى فى الطبيعة شيئا آخر سوى أنها مستودع ومعمل لمعالجة القمامة"، وهو انتحار بسبب "الرجحان السئ لمقولة التنمية اللانهائية الكم" إذ أنه باسم هذه

المقولة "تعمل مجتمعاتنا – يقصد المجتمعات الغربية طبعا – كما لو أن كل ما هو ممكن تقنيا أمر مرغوب فيه وضرورى سواء أكان ذلك فى صنع أسلحة نووية أكثر قوة باطراد أم صنع سيارات أو طائرات أكثر سرعة باطراد حتى ولو لم يستهدف الذهاب إلى أى مكان، أم إطالة الحياة أكبر قدر يستطاع حتى ولو كانت حياة نباتية خالصة تجعل المحتضر موضوع عرض علاجى مسرحى وضحيته.. إن مجتمعاتنا المسماه "متطورة" تعمل تبع المبدأ الذى كان فيما سلف مبدأ المغالطين: خلق حاجات ورغبات تتصف بأنها مصطنعة إلى أبعد مدى، ومؤذية أعظم الإيذاء من أجل اللجوء من ثم لانتاج وسائل إروائها[٢]".

إن ما تدعوه "مجتمعاتنا الغربية الحالية نموا أو تطورا إنما يعرف بمعايير وحيدة الجانب معايير اقتصادية: الازدياد الكمى فى الإنتاج وفى الاستهلاك دون الرجوع إلى مشروع إنسانى أو إلى صفة الحياة ونحن إنما نقازن اليوم ونصنف تسلسل المجتمعات والشعوب بهذه المعايير التى تعتمد على الناتج القومى الخام[٣]".

إن المتأمل للفقرات السابقة التى عبر فيها جارودى عن قناعته بأن التطور الصناعى ونمط النمو الذى تقيس به المدنية الغربية ذلك التطور، إنما يؤدى بالحضارة الغربية إلى الانتحار ويقود البشرية معها إلى طريق مسدود. إن تلك الفقرات هى أصدق ما فى كتاب

جارودى وهى تكشف عن وعى عميق بأزمة ما يسمى بالحضارة الغربية المعاصرة والتى أصر من جانبى على تسميتها بالمدنية الغربية. لقد بلور مفكرنا هذه الأزمة حينما وعى واكتشف أن معيار القياس فى "الغرب" هو معيار الكم الربحى أى المعيار الاقتصادى المادى الذى لا يعنيه الإنسان فى ذاته ولا يشير ولا يأخذ فى الاعتبار حياته الاجتماعية، أخلاقه ودينه وصحته النفسية وانفعالاته.

إن قياس التقدم بالمعيار الكمى وحده هو الذى أفقد تلك الحضارة – التى كانت كذلك فى القرنين السابع عشر والثامن عشر – قوامها الحضارى وحولها إلى مدنية بلهاء لا ترى فى الإنسان شيئا سوى عمله المادى ونتاج هذا العمل المادى من ثروات ومخترعات تسهل له الحياة وهى فى الواقع تدمرها، وتحول مُبدعها إلى موجود هامشى لا قيمة له ولا فاعلية.

لقد أصبح الإنسان الغربى – ونحن معه نسير على نفس الدرب – شيئا ككل الأشياء، أصبح شيئا غير مبدع، مات فيه الخيال وانعدمت الرؤية الشاملة، فقد أحاسيس الرؤية الواضحة، والقيمة الأخلاقية الرفيعة، ماتت فيه العاطفة الأخوية والأسرية والاجتماعية. لقد فقد الإنسان الغربى المعاصر القدرة على التفكير المجرد الشامل المتجاوز للواقع المادى، وماتت فيه القدرة على حب الطبيعة البكر، والتأمل فى آفاق الكون الرحب والالتحام بكل ما فيه بالحب والعطاء،

وليس بالنظر إلى كل ما فيه نظرة الآداه، نظرة السلب والنهب. إن ثورات الطبيعة الآن وفى كل مكان خير شاهد على ما فعله الإنسان فيها وتحديه إياها. إن ما نراه فى كل أنحاء العالم الآن من زلازل وبراكين – كانت خامدة منذ قرون وعادت تهز الأرض وتقذف إلينا بحممها – إنما هى خير رد من الطبيعة على ما يمارسه الإنسان الغربى ونحن معه من سلوك همجى تجاهها بدون وعى.

لشد ما ينبغى أن يتذكر الإنسان الغربى المعاصر كلمات الفيلسوف الرواقى القديم عن ضرورة التآخى مع الطبيعة والإنصات إليها واحترامها بنفس القدر الذى على البشر أن يتآخوا به فيما بينهم وأن يحترم كل منهم الآخر ويقدر دوره فى الحياة.

ولشد ما ينبغى أن يتذكر الإنسان الغربى المعاصر كلمات الفيلسوف الفرنسى العظيم جان جاك روسو الذى دق ناقوس الخطر منذ القرن الثامن عشر فى بحثه غريب العنوان عظيم المضمون "هل ساهم إنشاء العلوم والفنون فى تهذيب الأخلاق؟"؛ فقد قال فيه: "إنه بقدر ما كانت علومنا وفنوننا تتقدم نحو الكمال بقدر ما كانت أخلاقنا تفسد ونفوسنا تتعفن... إن البذخ هذا الشر الكبير نادرا ما يسير بدون العلوم والفنون وهذه لا تسير مطلقا بدونه[٤]"، وبالطبع فلم يكن قصد روسو من هذا البحث هو وقف تطور العلوم أو هدمها، وإنما كان يقصد إلى التنبيه إلى أن النمو المتنالى للحاجات البشرية كان شرا وأن تكاثرها الذى لم يكن ضروريا كان تهورا كبيرا من قبل البشر[٥].

• **الحضارة الغربية وضرورة الحوار مع الحضارات الأخرى :**

رابعاً: أما رابع قناعات جارودى فهى قناعته بضرورة الحوار بين الحضارات فى العصر الراهن حتى يمكن للحضارة الغربية أن تتجاوز أزمتها وكذلك حتى يمكن للعالم المسمى بالعالم الثالث أن يتجاوز وضعه الراهن. وقد تأكدت قناعته هذه من قناعاته السابقة التى كان جوهرها إيمانه بأن "الغرب حادث عارض. وأنه أخطر عارض طرأ فى تاريخ الكرة الأرضية والذى يقود اليوم إلى فنائها[٦]"، وأن نجاة الغرب من هذا الفناء المحقق لا يمكن تجاوزه إلا بالقضاء "على التصور التسلطى فى الثقافة الغربية" وأن "يستعاض عنه بتصور سيمفونى" يتطلع فيه الغرب بأسئلته وبحلول لمشكلاته إلى حكمه "العالم اللاغربى"، وليس من سبيل إلى ذلك إلا "بالانخراط فى حوار حقيقى مع الثقافات غير الغربية[٧]".

• **الفرص الضائعة للحوار بين الغرب والحضارة العربية الإسلامية:**

لقد كان هذا الحوار المنشود بين الغرب والحضارات الأخرى ممكنا فى مراحل سابقة من العصر الحديث لكن الغربيين أضاعوا فرصا كثيرة لهذا الحوار. وكان أبرز هذه الفرص الضائعة فرصة الحوار مع الحضارة الإسلامية التى كانت بالفعل تمد جسور هذا الحوار بما أقامته من صروح حضارية فى أوربا إبان عصر النهضة. وقد صور جارودى قوة تأثير هذا الجسر الحضارى بقوله:

"إن ما حققه العرب فى أسبانيا، يجعلنا نفكر فى الحرب الثورية التى نهض بها ماو (يقصد ما فعله ماوتسى تونج فى الثورة الصينية وبناء الصين الجديدة)؛ فقد جلبوا معهم نظاما اجتماعيا أعلى جدا من النظام الراهن، وسرعان ما ظهروا بمظهر محررين: أولا بانقاذهم الأقنان من وصاية ملوك (الفيزغوط) فى عصر انحطاطهم ثم بعدم امتلاكهم الأرض - والقرآن يمنع ذلك - ولكن الاكتفاء بالخراج. لقد أقام العرب فى بلد تمزقه الفوضى الإقطاعية أجمل منشآت الرى التى عرفها العصر، ولايزال المتحدثون يلهجون إلى اليوم بالكلام على حدائق مرسى حديثهم عن حلم[٨]".

"إن الحضارة التى أقامها العرب فى أوربا كانت حضارة نشر العلم"، "نحن ندين للعلم العربى بكليات الطب الفرنسية الأساسية" وقد ظلت كتب الطب العربية مثل كتب الرازى الشهيرة تنشر وتدرس حتى القرن السادس عشر فى فرنسا وحتى منتصف القرن التاسع عشر فى انجلترا "وقد توصل عمر الخيام إلى حل معادلات الدرجة الثالثة باستخدام نفس الطريقة التى استخدمها ديكارت بعد خمسة قرون وبذلك وضع أسس الهندسة التحليلية، وقد ظل كتاب الجبر الكبير الذى ألفه الخيام وترجمه إلى الفرنسية مرجعا معتمدا حتى سنة ١٨٥٧م[٩]".

إن جارودى يحاول فى الفقرات السابقة أن يعدد بعض ما قدمه العرب للغربيين من علوم كانت هى أساس نهضتهم، وهو

يستشهد فى هذا الصدد بما نشره الكاتب الفرنسى الكبير أناتول فرانس فى "الحياة الجميلة" حيث: "سأل السيد دوبوا السيدة نوزير عن أشأم يوم فى تاريخ فرنسا، ولكن السيدة نوزير لم تكن تعرف. فقال السيد دوبوا: إنه يوم معركة بواتيه عندما تراجع العلم العربى والفن العربى والحضارة العربية سنة ٧٣٢ أمام همجية الفرنجة[١٠]".

ويعلق جارودى على هذا النص الذى نقله قائلاً: بأن الكشف عنه كان سببا فى طرده من تونس سنة ١٩٤٥م بذريعة الدعاية المضادة لفرنسا[١١]".

ولقد أعفانا جارودى بتعليقه هذا من التعليق؛ فقد أوضح بصورة جلية أن الغربيين لا يقبلون الاعتراف بفضل أحد عليهم، فهم لم ولن يعترفوا بالحقائق التى أدركها هو والبعض ممن يعدون استثناءات قليلة فى تاريخ الفكر الغربى الحديث والمعاصر.

إن مفكرنا يحاول فى الصفحات التالية من كتابه الذى بين أيدينا، تصحيح بعض المفاهيم التى رسخت فى ذهن الإنسان الغربى عن وجود العرب فى أوربا وما كان يمكن أن يحققه الغربيون من مكاسب عظمى لو حافظوا على هذا الوجود الحضارى العربى واستفادوا منه بدلا من إماتته فى ذاكرتهم ونسبة انجازاته زيفا إلى أجدادهم من اليونانيين. لقد قيل من جانب الغربيين فى ذلك الوقت من عام ١٩٤٥ وأثناء الاستعمار الفرنسى للجزائر وغيرها من

البلدان العربية الإسلامية "إن العلم العربى الذى بلى ومات ميتة لا رجعة لها إنما قام على اقتباسات من مؤلفات يونانيين اختارها يهود فى العصور الوسطى[١٢]".!.

ويحاول جارودى تصحيح هذا الفهم الخاطئ بقوله متسائلاً: "لماذا هب هذا الإعصار القادم من الشرق وانتشر بمثل هذه السرعة العظمى من بحر الصين إلى المحيط الأطلسى؟ ان العامل الحاسم هو أن العربى قد جلب معه أشكالا أعلى فى مجال التنظيم الاجتماعى وحتى الاقتصادى. ولذا نجده يحظى بقبول الجماهير فى عالم يقر نظام الرق وهو فى حالة تفسخ تام[١٣]".

إن هذه المحاولة التصحيحية التى يقوم بها مفكرنا إنما هى جزء من كل يستهدف من وجهة نظره "ضرورة وضع التاريخ كله فى أفق رؤية لا تشوهها أحكام الغرب المسبقة، رؤية تقلع عن اتخاذ النظرة الأوربية مركزها[١٤]".

وبالطبع فإن هذه شجاعة عظيمة من جارودى حينما يقف فى مواجهة حقيقة كثيرا ما غابت عن وعى معظم المثقفين والكتاب فى العالم الغربى، وهى أن تاريخ الإنسانية قد شوهته هذه النظرة الأحادية الغربية التى يحاول دحضها والتقليل من سيطرتها على الوعى الغربى. وأكاد أقف معه فى خندق واحد لأدعو معظم المثقفين بل والمفكرين العرب أيضا إلى إدراك هذه الحقيقة بعد أن تشوه

وعيهم بما ينقلونه من فتات هذه النظرة الغربية العنصرية المحدودة إلى تاريخ الحضارات وفلسفاتها وعلومها. إنها دعوة إلى أن يقلل هؤلاء من تفاعلهم مع هذه النظرة الغربية والتأثر بها، دعوة إلى رفض هذه النظرية التى تعتبر أن الغرب هو مركز كل شىء وصانع كل شىء، إننى أنادى هؤلاء بأن يتعلموا الشك فى كل الرؤى الغربية العنصرية، وأن يثابروا ويصبروا حتى يكتشفوا كنه الحقيقة بالعودة إلى غير المألوف من كتب تراثنا الشرقى القديم وتراثنا الاسلامى، دعوة إلى أن ينظروا فى المصادر غير المألوفة من كتب الرحالة والمؤرخين غير الرسميين، إلى الوثائق غير الشائعة، تلك الوثائق المخفية عن أعيننا بفعل الاستعمار الغربى سواء حينما كان بصورته السافرة فيما مضى أو فى صوره الخفية غير السافرة الآن.

- **الفرص الضائعة للحوار مع الحضارتين الصينية والهندية:**

ولنعود إلى جارودى وشجاعته فى إبراز تلك الفرص المفقودة التى أضاعها الغربيون وكان من الممكن أن يستفيدوا منها فى الحوار مع الحضارات الأخرى، ومنها فرصة الحوار مع الحضارة الصينية التى تحدثنا عنها فيما سبق، وفرصة الحوار مع الحضارة الهندية التى أذهل جارودى فيها بوجه خاص ما تملكه من رؤية مختلفة للعالم ولحقيقة الوجود. وقد ضرب عدة أمثلة على مضمون تلك الرؤية من التراث الهندى القديم والمعاصر، ولعل من أبرز الأمثلة

ما ذكره عن الزعيم الهندى الشهير المهاتما غاندى الذى قاوم الاستعمار الإنجليزى الغربى لبلاده من منظوره الحضارى الهندى المميز. لقد قال غاندى موضحا فلسفته الحضارية: "قد لا تقوم الحضارة على مضاعفة الحاجات وإكثارها، بل على العكس تقوم على تقليصها بإرادة ووعى" إن إرادة خلق عدد غير محدود من الحاجات من أجل العمل على تلبيتها فيما بعد ليس سوى تتبع ريح "وأنا لا أضع أى حد دقيق يفصل الاقتصاد عن الأخلاق لشدة ما قمت بهذا التمييز[١٥]".

وبالطبع فإن هذه الروح الحضارية المتميزة إنما هى روح الحضارات الشرقية جميعا وقد استقاها غاندى من التراث الفكرى الهندى بتاريخه الطويل وقوته الروحية الهائلة.

لقد حدد جارودى هدفه من تعديد هذه الفرص الضائعة للحوار بين الحضارة الغربية والحضارات الأخرى فى الماضى القريب والبعيد.إنها محاولة منه لإعادة الحضارة الغربية إلى مكانها الصحيح فى تاريخ البشرية، فهى لا تشكل سوى الجزء الأكثر ضآلة وسطحية من تراث طويل عريق وعظيم.

إن الهدف من تلك الاستشهادات بإنجازات الحضارات الأخرى فى نظره "ليس القيام بما يقوم به المؤرخ أو عالم الآثار من بعث الماضى الغابر، ولا القيام بما يقوم به هاوى المعرفة الأجنبية،

بل إن كل شيء هنا يتجه شطر المستقبل، شطر اختراع المستقبل. ونحن لانستطيع إرجاع مشروع الإنسانية الروحى إلى المشروع الغربى عن العلم للعلم والتقنية للتقنية.. إن التربية السلبية وهى تميز الفكر الشرقى ينبغى بالضرورة أن تتدخل لتحديد هدف تقنيات مداولاتنا الغربية ونضدها باتجاه كل عالمى. وعلينا أن نتعلم الشيء الكثير من الحكمة الشرقية. وبالمقابل فقد يتفق لسكان افريقيا وأسيا وأمريكا اللاتينية الإفادة من دمج بعض الجوانب الإيجابية من علمنا وتقنياتنا. وليس بمحال إطلاقا حدوث مبادلة تتيح حوارا بين الحضارات. ولكن الحوار يفترض أن يكون كل طرف مقتنعا بأن ثمة شيئا يتعلمه من الطرف الآخر[١٦]".

[٣]

• **الرد العربى على مسألة الحوار الحضارى:**

لقد اتضح لنا فيما سبق أن ما يسعى إليه جارودى فى كتابه الذى بين أيدينا وفى معظم كتاباته الأخرى وخاصة المتأخرة منها[١]، إنما هو إقامة الحوار بين الحضارات لخير الإنسانية كلها، وهذا موقف فكرى عظيم نقدره له. وقد رد عليه الفكر العربى فى حينه، إذ كتب المفكر التونسى الأستاذ محمد مزالى فى مجلة "الفكر"

التونسية بعد صدور "حوار الحضارات" لجارودى بشهرين فقط، كتب مقالا بعنوان "نحو مستقبل أفضل أساسه حوار الحضارات" يشيد فيه بموقف صاحبه واعتبره "الموقف السليم الذى يمليه العقل المتبصر وتقتضيه الأخلاق السامية وتفرضه متطلبات السلم العادلة الدائمة[٢]" وقد أوضح الأستاذ مزالى أن تلك الدعوة إلى الحوار البناء بين الحضارات إنما هى دعوة طالما دعونا إليها على أن يكون ذلك الحوار وهذا التعاون الثقافى نزيها "يقوم على التقدير المتبادل مبرءا من عقد الاستعلاء والغرور وإرادة الهيمنة والاستغلال، محاط بأكثر قدر من الانتباه والتحرى للحفاظ على خصوصية كل ثقافة وإبراز طرافتها وصياغة عبقريتها[٣]".

إذن لقد كان أول رد عربى - إسلامى على تلك الدعوة إلى الحوار بين الحضارات يمثل الرد المتوقع منهم بحسب إرثهم الحضارى الطويل القادر على ادراك أن النماذج الفكرية لابد أن تتلاقح لخير البشرية جميعا، وأن حظوظ الأفراد والشعوب من الإبداع متساوية دائما، وأن ليس هناك ما يمكن أن يسمى بالشعب المعجزة أوبالفرد المعجزة؛ إذ أن للشعوب إرادة فكرية جمعية تبدعها وتنميها وتتفاعل بها مع الشعوب الأخرى، كما أنه لم يولد بعد الفرد المبدع إبداعا مطلقا؛ فالإبداع ليس خلقا للأفكار أو للنظريات العلمية والفكرية من عدم وإنما هو نتيجة حتمية للتأثر ببيئة فكرية ناضجة

تأثرت بتراث سابق عليها أو معاصر لها. هكذا يعلمنا النظر إلى التاريخ العالمى للحضارات البشرية.

إننا يا سيد جارودى نؤمن بكل ذلك ولا أدل على إيماننا العميق به من أننا كأمة عربية - إسلامية قد فتحنا لحضارتكم ونواتجها العلمية والتقنية - بإرادتنا واختيارنا - الأبواب على مصراعيها، فمنذ بدأ أجدادنا يسمعون عن تقدمكم الحضارى الحديث، بدأوا منذ فجر نهضتنا الحديثة يرسلون إليكم البعثات العلمية، ويطلبون منكم التعاون فى شتى المجالات. .

• **الرد الاستعمارى على طلب "الحوار الحضارى":**

لكن ماذا كان رد الغرب؟!، لقد كان ردا استعماريا غازيا ناهبا مشتتا شمل الدول والامارات العربية الاسلامية، وتعلم يا سيد جارودى كيف بدأ ذلك العصر الإستعمارى من دول أوربا الغربية لدول الشرق وماذا كانت أهدافه! وكم كانت شجاعتك الفكرية عظيمة فى هذا الكتاب حينما كشفت بنفسك عما كان مخفيا على باحثيكم ومفكريكم، وكذلك على باحثينا ومفكرينا من حسنى الظن والمتغربين، عما فعله الغربيون فى الحركات الاستعمارية بالدول المستعمرة.

وسأسوق لهم من كلامك بعض فقرات تصف ذلك؛ فلقد نشر الغربيون إبان استعمارهم ظاهرة الرق سواء فى أفريقيا أو فى

أمريكا، وبخصوص أفريقيا قبل استعمارها "لم يكن الرق أبدا طرازا من طراز الإنتاج فيها قبل وصول الأوربيين إليها.. ولم يكن ثمة قبل الإلتقاء بأوربا إلافارق طفيف فى مستوى الثقافة، وكان التفجير الأساسى نتيجة تفجير الرأسمالية الإنتاج تفجيرا كميا[٤]". وبالنسبة لأمريكا "كان أول انفصام كبير قد حدث بعد إبادة هنود أمريكا، وقد شرع غزاة كبار طغاة بهدم حضارات عظيمة عريقة وذبح الشعوب كما فعل هرمان كورتز بالازتك فى المكسيك، وبدرو دى ازفيدو بالمايا، وبيزار فى الآند[٥]".

ويحكى جارودى القصص الدامية للإستعمار الأوربى وكيفية استقدام الأرقاء من افريقيا دون مراعاة لأى ظروف آدمية، وتلك الإبادة الجماعية التى تعرض لها منذئذ الأفارقة سواء فى طريقهم للأرض الجديدة أو فى تلك الأرض نفسها لمدة ثلاثة قرون كاملة.

وقد لخص مآسى كل ذلك بقوله "إن الرأسمالية الأوربية وقد أصبحت مركز منظومة اقتصادية عالمية، هى التى أعادت الرق إلى الوجود، وفرضته خلال ثلاثة قرون من القرن السادس عشر حتى القرن التاسع عشر. وعلى هذا النحو ولدت الثروات العظمى للمشاريع الرأسمالية فى الوحل وفى الدم[٦]"، وحتى حينما نادى الأوربيون من المفكرين الأحرار بإلغاء الرق، لم يلغ الرق لقناعة كاملة من الأوربيين بذلك – كما يتغنى هم ومن يتابعونهم من

المفكرين والمؤرخين العرب من حسنى النية – بل إنه ألغى لأسباب اقتصادية بحتة.

وقد كشف جارودى عن الأسباب الحقيقية لإلغاء الرق بقوله "إن الرق لم يُلغ لأسباب أخلاقية فى الأزمنة الحديثة.. لقد ألغى لأسباب اقتصادية.. ففى الولايات المتحدة كان من الممكن عند الحاجة الاكتفاء بالقسر المباشر لتنفيذ الأعمال اليدوية لأن العبيد كانوا يلحقون الضرر بالأدوات وينظمون عمليات التخريب(٧)". أما فى أوربا فقد ألغى الرق "حينما ظهرت الثورة الصناعية وتناقص الريع الحاصل عن الرق شيئا بعد شىء. ونجم عن شروط العمل التقنية الجديدة ضرورة البحث عن حوافز أخرى غير الإكراه الجسدى وذلك لربط العامل بخوف اقتصادى من فقدان خبزه وخبز أسرته(٨)".

• **هدف الغرب : صيد البشر ونهب الثروات:**

والغريب فى ثنايا كل ذلك وبعده أن يعلن الأوربيون بتبجح واضح إبان عصر استعمارهم لبلدان العالم الأخرى إنهم إنما يحاولون إنهاء الرق فى العالم، وأنهم إنما يحاولون تمدين الافريقيين.. إلى أخر هذه الدعاوى المضللة!!.

لقد كان الاستعمار الأوربى يستهدف دائما الاستيلاء على ثروات الدول الأخرى وتسخير كل ما فيها لخدمته وخدمة اقتصاده، وفى أحسن الأحوال كان الاستعمار يتم بحسب قول أحد ممثلى الدول

المستعمرة فى برلمان بلاده آنذاك "لخلق أسواق جديدة[٩]" لتصريف الصناعات الأوربية بأغلى الأسعار بعد أن سلبت موادها الخام من تلك البلاد المستعمرة!. وياليت الأمر فى الغرب الاستعمارى قد توقف عند حد النهب الاقتصادى وإفقار هذه البلاد المستعمرة!، فالأمر المخزى حقا هو المذابح التى ارتكبوها بحق المدنيين الأبرياء فى سبيل ذلك. ١

ولقد روى لنا جارودى بعض شهادات القواد العسكريين الميدانيين حول تلك المذابح التى يحكون عنها بفخر فى ذلك الوقت!. ويكفى الإشارة إلى ما رواه أحدهم ويدعى كونت دى هاريسون فى كتاب له بعنوان "صيد البشر[١٠]" عن حملات الإبادة التى كانوا يقومون بها ضد السكان المساكين فى الجزائر "ببرودة وعدم رحمه" وكيف كانوا "يبيعون آذانهم المقطوعة ويفترسون نسَاءهم" وكيف كانوا يحرقون قبائل بأكملها، وغير ذلك من فظائع يكاد لا يصدقها العقل[١١].

ولنتوقف عن الخوض فى تفاصيل تلك الفظائع التى ارتكبها المستعمرون الأوربيون لأننا نعلمها جيدا ولا تزال آثارها باقية فى أرض المغرب العربى والمشرق العربى على السواء. وإذا كان الوعى الأوربى ممثلا فى جارودى قد بدأ يزيح عنها الستار ستار النسيان ويذكر قومه بها، فنحن لم ننساها وإن كنا نحاول أن

نتناساها. إن ما حدث فى الماضى القريب قد تناسيناه رغم ارثه الطويل من آلام فى النفس لا تمحى، ومن أثار مدمرة على الإنسان العربى والشرقى لم يمحها الزمن بعد!.

• **استحالة الحوار الحضارى مع الغرب وأسباب ذلك :**

ولعل السؤال الآن بعد كل هذا هو: أيمكن أن يكون هناك حوار حقيقى بيننا وبين ما يسمى خطأ الآن بالحضارة الغربية المعاصرة؟.

إن الإجابة على هذا السؤال صعبة وخطيرة، إذ لابد من أن نتساءل: على أى مستوى يكون هذا الحوار؛ هل على مستوى الفكر الحضارى النظرى أم على مستوى الواقع العملى المصلحى النفعى المرتبط بالمنافع المادية المتبادلة؟!

وإذا اعتبرنا أن المستويين متداخلان، وهما هكذا فعلا فى عصر اختلطت فيه المفاهيم وامتزج النظرى بالعملى امتزاجا لا انفصام فيه، فليس أصعب على نفس الإنسان الشرقى من أن يجيب – وهو يملك إرثا حضاريا عظيما وغنيا وهائلا – وهو فى أضعف حالاته أمام قوة الغرب وسطوته وعنفوان مصالحه وهيمنته!!.

إن قناعتى الشخصية أن هذا الحوار لم يحن وقته بعد، بل أكاد أقول إنه مستحيل فى ضوء المعطيات التى يقذفها الغرب فى وجهنا

كل يوم على الصعيد الواقعى العملى، وفى ضوء المعتقدات التى رسخت فى ذهن المفكر الغربى، مستحيل لأسباب كثيرة فى اعتقادى وأهم هذه الأسباب ما يلى:

أولاً : أن قيام الحوار بين الحضارات يفترض سلفا أن يكون لدى الجميع قناعة تامة بما أسميه "التكافؤ الحضارى" أى أن كل الحضارات الإنسانية المعاصرة سواء، وأن كل حضارة لديها بالفعل ما تعطيه للحضارات الأخرى من قيم تمتلكها وعلوم وفنون وآداب تبدعها، وأنه إذا امتاز شعب حضارة معينة بميزة نتيجة لظروف بيئية أو تاريخية معينة فإن شعوب الحضارات الأخرى لديها مميزات أخرى نتيجة لظروف بيئية وتاريخية مختلفة، كما أن الثروات الطبيعية التى يتمتع بها أبناء الحضارات والشعوب المختلفة إنما يمكن أن تصب جميعها فى خدمة البشرية كلها إذا ما خلصت النوايا وسادت المساواة الحقيقية والعدالة الحقة فى نظرة الجميع للجميع.

وفى ضوء ذلك أتساءل: هل يمكن أن تتوافر هذه القناعة لدى أبناء الحضارة الغربية (أو ما أسميه بالمدنية الغربية) المعاصرة؟!.

إن الاجابة على هذا التساؤل هى بالقطع بالنفى؛ فالناظر إلى تاريخ الحضارة الغربية فى أى عصر من عصورها يتأكد من أنها كانت دائما ولا زالت تنظر إلى أبناء الحضارات الأخرى نظرة استعلاء واحتقار؛ فمنذ الحضارة اليونانية ونظرة الإنسان الغربى

لإنسان الشرق هى هى لم تتغير: إنه ذلك "البربرى الذى لا يصلح إلا للرق والعبودية " وأنه " غير قادر على التحدى الحضارى" وأنه " لا يقدر على إنتاج الفكر الفلسفى إو الإبداع العلمى" وأنه بشكل عام لايصلح إلا أداة تسيرها إرادة الغرب لتحقيق مصالحه التى كانت ولازالت – فى نظر الغربيين – هى دائما المصلحة العليا للإنسانية؛ فالإنسان الغربى هو الوحيد الذى يعرف أين المصلحة العليا للإنسانية، وهو الوحيد القادر على القيادة والريادة والإبداع.. الخ!! إن مهادنة الإنسان الغربى للإنسان الشرقى فى بعض فترات التاريخ لم تكن إلا للاستفادة من بعض انتصاراته الفكرية ومكتشفاته العلمية ونظمه الاجتماعية والسياسية والاقتصادية المتطورة. إنها كانت دائما فى فترات التعلم والتلقى من حضارات الشرق سواء فى الزمن القديم أيام أن تعلموا الدرس الحضارى الأول على يد أبناء الحضارات الشرقية القديمة فى العصر اليونانى، أو فى عصر النهضة حينما تلقوا الدرس الحضارى الثانى على يد الحضارة الإسلامية والحضارة الصينية.

وأيا ما كان أمر المستقبل الذى لا أشك فى أنه سيحمل دروسا حضارية أخرى سيتعلمها الغربيون من الشرق، فإن نظرة الإنسان الغربى لم تتغير؛ فهو لم يعترف بتلك الدروس الحضارية التى تلقاها عن الآخرين على أساس مما أسميته الآن "التكافؤ الحضارى"، بل كان دائما يتناسى ذلك ويعيد النظر إلى ذاته بصورة متضخمة

مركزية متميزة.. إن الإنسان الغربى مريض بعبادة الذات، مريض بالنظر إلى نفسه دائما على أنه الإنسان "النموذج" وأنه "الفذ المتميز"، وإنسان هذه نظرته إلى ذاته حتى وهو فى أشد لحظات الضعف والتخلف الحضارى لا يمكنه أبدا أن يحسن الحوار مع غيره من منطلق "التكافؤ" خاصة وهو يعيش هذه الأيام أزهى انتصاراته، وينتشى كل يوم بمدى هيمنته وقوة سيطرته على الآخرين.

ثانياً : إنه من خلال كل ما عرضنا له من شهادات جارودى نفسه، ثبت له ولنا بالدليل القاطع أن الغرب لم يعد يمتلك الآن حضارة، بل هى مدنية بلهاء تقودها قوى الدمار والفتك والعنف لاقوى التفكير العقلى والمنطقى. إن كل الشواهد التى تأتينا من الغرب – باستثناء قلة قليلة من المفكرين المنصفين الواعين بأزمة حضارتهم – ومنذ عصر التوسع الاستعمارى الأوربى لا يلوح منها أى بادرة لإمكانية مثل هذا الحوار الحضارى!

إن الغربيين تركوا استعمار الأراضى، نعم! لكنهم لا يزالون فى غيهم الاستعمارى ماضون بوسائل وصور شتى لا حصر لها منها الاقتصادى ومنها الثقافى ومنها الاجتماعى والسياسى، ومنها الثقافى والاعلامى، وكلها وسائل تخريبية لا تكتفى بتخريب اقتصاديات ومدنيات الدول الأخرى، بل تسعى لافقارها وإفنائها. والحقيقة أنه لا يمنعهم من استكمال ابادة الشعوب الأخرى، إلا أنهم

وجدوا أن من مصلحتهم الإبقاء على تلك الشعوب البائسة (التى هى نحن) حتى يظل لديها - أى لدى أمة الغرب - من تستخدمهم لتحقيق مصالحها، حتى يظل لديها من تشفق عليهم ويظل لديها الإحساس بالتفوق المادى والتقنى، والشعور بالتفوق ضرورة عند الإنسان الغربى، إذ أن ذلك كما أسلفنا يمثل عقدة قديمة عقدة "التفوق والتميز".

ثالثاً : إن هذا الحوار الحضارى مستحيل لأنه فى كل الأوقات السابقة والتى لاحت فيها فرص الحوار كان الغربيون هم من ضيعوا هذه الفرص وإذا ما قيل لنا: دعكم من هذه الفرص المفقودة السابقة، ولنبدأ من جديد!

فمن أين يبدأ الحوار؟ هل من تأييد الغرب المطلق لأشر أجناس الأرض الذين تجمعوا فيما يسمى باسرائيل، وكل أهدافهم - كما تعلمون يا سيد جارودى - تخريبية توسعية!! لقد أراد الغرب التخلص من شرورهم والحاحهم ولم يجد لهم مأوى إلا زرعهم فى أرض عربية اسلامية!!

إن "الشر الأبيض" يا سيد جارودى لا يزال يمرح فى أرض العرب والمسلمين، وإن كنت ترى على السطح حوارا بين العرب واسرائيل، فإن مظلة هذا الحوار من أمريكا وروسيا وأوربا إنما تظلل فقط الجانب الإسرائيلى، ولا ينوى هؤلاء تحت أى ظروف

الضغط على صنيعتهم "اسرائيل"، لا لشيء إلا لأنها لا تزال تحقق مصالحهم وأهدافهم المنظورة وغير المنظورة فى قلب العالم العربى والإسلامى.

إن "الشر الأبيض" يا سيد جارودى لا يزال ومنذ شهور عديدة يسفك دم المسلمين فى يوغسلافيا السابقة لا لشيء إلا لأنهم قالوا "إنا مسلمون"! وها هم يُغتصب نساؤهم ويذبحون كالحيوانات ويشرد من بقى منهم تحت سمع وبصر قادة "الشر الأبيض"، ولم تتحرك بعد الجيوش كما تحركت من قبل فى حرب الخليج لمصالح معلومة لاتخفى على أحد!!

ها نحن نرى أن كل مقومات "امبراطورية الشر الأبيض" لاتزال قائمة وشاهرة كل أسلحتها الخفية والعلنية ضد شعوب العالم الأخرى، تأمر هذا وتنهى ذاك!! تنتهك حرمة هذا وتقف إلى جوار ذاك!! إنها تعيث فى الأرض فسادا ولا أحد منكم يصرخ أو حتى يكتب طالبا وقف هذا الشر الغربى الزاحف فى عالم آخر القرن العشرين. وحتى إن كتبتم، فهل يمكن لتلك الآلة العسكرية المخابراتية البراجماتية المادية الرهيبة والتى تتحكم فى العالم وفق معاييرها العنصرية الآثمة الشريرة، هل كانت تلك الآلة التى تذكرنى دائما بلفياثان هوبز[١٢] ستستمع إلى ما تقولون أو تلتفت لما تكتبون؟!

إن قوة "الشر الأبيض" فى عالم اليوم قد تحركت منذ زمن وهى لا تزال إلى اليوم تتحرك بفعل شيطان آلى ميكانيكى لا يمكن أن يوقفه فكر أو حوار. إن وقف هذا "الشر الأبيض" لم يعد يصلح له الحوار لأنه لا يقبل إلا الحوار مع نفسه، والهدف واضح لديه! إنه إذلال الآخرين ومحو حضاراتهم وكياناتهم والاستيلاء على ثرواتهم، وإفقادهم الثقة فى أنفسهم منذ الآن وإلى الأبد!!

ان وقف هذا "الشر الأبيض" لم يعد له من سبيل إلا إعلان العصيان المدنى العالمى عليه، فهل تفعلون؟!.

أما نحن أبناء الشرق، فليس أمامنا إلا العودة إلى الذات واستلهامها بعد الوعى بأهداف "امبراطورية الشر الأبيض"، العودة إلى الاستمساك بكل قيمنا الأصيلة وبديننا الحنيف وبكل ما يدعو إليه من قوة وترابط وتراحم وحب وتعاون واعمال فكر وإبداع، العودة إلى الامساك بعناصر حضارتنا الإيجابية التى افتقدناها فى غمرة التباهى بالفرنجة والتغريب! ولعل العودة إلى الذات تكون بداية وأداة للتغيير نحو الأفضل والأقوم والأقوى بعون من الله وبمساندة إرادته التى ليس فوقها إرادة.

الهـوامش

هـوامش [١]

(١) روجه غارودى: حوار الحضارات، الترجمة العربية للدكتور عادل العوا، نشرة منشورات عويدات، بيروت وباريس، الطبعة الثالثة ١٩٨٦م، ص١٧.

(٢) نفس المصدر السابق، ص٣٧.

(٣) نفسه، ص٤٥.

(٤) نفسه، ص٤٧.

(٥) نفسه، ص٤٨.

(٦) نفسه، ص١٠٣.

(٧) نفسه، ص٩٧.

(٨) انظر: نفس المصدر، ص١٠٣.

(٩) نفسه.

(١٠) نفسه، ص١٠٤، ١٠٥.

obeikandl.com

(١١) نفسه، ص١٠٦، ١٠٧.

ويمكن للاستزادة فى هذا الصدد الرجوع إلى: كتابنا: فلاسفة أيقظوا العالم، الفصل العاشر عن ابن خلدون، والفصل الحادى عشر عن مكيافيللى، وهو منشور بدار الكتاب الجامعى بالعين بدولة الإمارات العربية المتحدة، ط٢، ١٩٩٠م.

(١٢) جارودى: نفس المصدر السابق، ص١١١.

(١٣) نفسه.

(١٤) انظر: نفس المصدر: ص١١٢-١١٣.

هـــوامش [٢]

(١) روجه غارودى: حوار الحضارات، الترجمة العربية للدكتور عادل العوا، منشورات عويدات ببيروت، ١٩٨٦م، ص٤٢.

(٢) هذه الفقرات من نفس المصدر: ص٤٢، ٤٣.

(٣) نفسه، ص٤٤.

(٤) انظر كتابنا: فلاسفة أيقظوا العالم، نشر دار الكتاب الجامعى بالعين، دولة الإمارات العربية المتحدة، الفصل الخامس عشر، ص٢٢٣ وما بعدها.

(٥) انظر: نفس المصدر السابق.

(٦) جارودى: المصدر السابق، ص٩٣.

(٧) نفسه.

ويجدر الإشارة هنا إلى أن فلاسفة غربيين عديدين من أمثال اشبنجلر واشفيتسر وتوينبى قد نبهوا إلى تلك الحقائق وأدركوا انهيار الحضارة الغربية إن هى لم تسارع وتصحح مسارها بالاستفادة من الحضارات الأخرى خاصة الحضارات التى تقوم على أساس دينى وأخلاقى.

راجع ما كتبناه عن أراء اشبنجلر وتوينبى فى كتابنا: فلاسفة أيقظوا العالم، فى الفصلين الثامن عشر والتاسع عشر.

كما يمكن الرجوع إلى كتابنا: فلسفة التاريخ معناها ومذاهبها للاستزادة من آرائهما وأراء اشفيتسر، نشر وكالة زووم برس للإعلام، القاهرة، ١٩٩٢م.

والجدير بالذكر أن كتاب اشفيتسر الرئيسى فى هذا الموضوع وهو بعنوان "فلسفة الحضارة" قد نقله د. عبد الرحمن بدوى إلى اللغة العربية، نشر وكالة المطبوعات بالكويت.

(٨) جارودى: نفس المصدر، ص٩٧.

(٩) نفسه، ص٩٨.

(١٠) نفسه.

(١١) نفسه، ص٩٩.

(١٢) نفسه، ص١٠١.

(١٣) نفسه.

(١٤) نفسه، ص١٠٨.

(١٥) هذا القول للمهاتما غاندى منقول عن: جارودى: نفس المصدر السابق، ص١٢٣.

(١٦) نفس المصدر، ص١٢٥.

هـــوامش [٣]

(١) انظر على سبيل المثال كتابه الهام: ما يَعدُ به الإسلام، ترجمة إلى العربية قصى أتاسى وميشيل واكيم، صدر عن درا الوثبة، سوريا ـــ دمشق، ط(٢) ١٩٨٣م.

(٢) محمد مزالى: نحو مستقبل أفضل أساسه "حوار الحضارات"، منشورة كملحق فى ختام نفس الترجمة العربية لكتاب جارودى: حوار الحضارات، ص٢٨٣.

(٣) محمد مزالى: نفس المرجع، ص٢٨٣.

(٤) جارودى: حوار الحضارات: ص٥١.

(٥) نفسه.

(٦) نفسه، ص٥٦.

(٧) نفسه، ص٦٠.

(٨) نفسه، ص٦١.

(٩) نفسه، ص٦٤.

(١٠) يذكرنى عنوان هذا الكتاب وما يرويه جارودى بتعليق لابد منه عن أن النظرة الغربية لشعوب الأمم الأخرى لم تتغير منذ فجر الحضارة الغربية؛ فقد أباح كبير فلاسفتها أرسطو الحرب فى حالة واحدة فقط هى حالة نقص الأرقاء فى الدولة. إذ أنه كان يعتبر أن الرقيق عنصر أساسى من عناصر الأسرة، ولما كان الأرقاء بالضرورة من الأجانب غير المواطنين (بالتعبير الأثينى اليونانى القديم). فقد أباح أرسطو أن تشن الدولة اليونانية الحرب على جيرانها من البرابرة (أى الأجانب) بغرض "اصطياد الأرقاء" بنص تعبير أرسطو. [انظر: الترجمة العربية التى قام بها أحمد لطفى السيد لكتاب: السياسة لأرسطو، الفصل الخاص بالرق وعناصر الأسرة، نشر الكتاب بالهيئة المصرية العامة للكتاب، الطبعة الثانية ١٩٧٩م.

obeikandl.com

(١١) انظر: بعض تفاصيل هذه الفظائع فى نفس المصدر لجارودى، ص٧١ وما بعدها.

(١٢) الليفياثان عند الفيلسوف الانجليزى توماس هوبز يعنى الوحش الاسطورى الذى يمثل رمز السطوة والقوة ويحكم بمقتضى أنانيته المفرطة، إنه رمز للحاكم القوى الذى يقهر إرادة كل من تسول له نفسه أن يخالفه فى الرأى.

[انظر: Hobbes(T.): Leviathan, Penguin Books, U. S. A., 1977.]